مجلة الواحات للبحوث والدراسات
ELWAHAT Journal for Research and Studies
Available online at :https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/2
48 – 33 :(2023) 1 العدد 16 المجلد ISSN : 1112 -7163 E-ISSN: -18922588

النحو التعليمي في الدرة الألفية لابن معطي

The Educational grammar in the Durra Alfiya of Ibn Maati

فاطمة رزاق

جامعة غرداية ، كلية الآداب واللغات، مخبر التراث الثقافي واللغوي والأدبي بالجنوب الجزائري

grammairearabe78@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/12/15 تاريخ القبول: 2023/04/17 تاريخ النشر: 2023/06/07

ملخص:

يستمد هذا البحث قيمته من خلال موضوعه المتمثل في الكشف عن معالم النحو التعليمي في ألفية ابن معطي ، إذ يهدف إلى بيان مدى عناية النحاة القدامى بالجانب التعليمي من خلال منظوماتهم ، وذلك بهدف تيسير النحو وجعله قريبا من أذهان متعلميه ، حيث ألفوا منظومات للمبتدئين، وكانوا حريصين على اتباع مناهج التعليم فيها ، وقد ظهرت سمات هذه المناهج بارزة في ألفية ابن معطي بصفة خاصة.

وقد أعدّ هذا البحث وفق المنهج الوصفي التحليلي ، للوصول إلى نتائج تتمثل فيما يلي:

. عناية النحويين العرب الأوائل بتأليف المنظومات النحوية ، مما يدل على وعيهم العميق بالاحتياجات التربوية للمتعلم .

. وجود معالم واضحة للنحو التعليمي في ألفية ابن معطي.

كلمات دالة : النحو ، المنظومات ، الألفية ، النحو التعليمي .

المؤلف المرسل: فاطمة رزاق،grammairearabe78 @gmail.com

Abstract:

This research derives its value through its theme represented in revealing the educational grammar features in the Alfiya of Ibn Maati, as it aims to show the extent of the old grammarians' care for the educational aspect through their Manthomat, with the aim of facilitating the grammar and making it close to the minds of its learners, as they composed Manthomat for beginners, and they were keen To follow the educational curricula in it, and the features of these curricula appeared prominently in the Alfiya of Ibn Maati in particular.

This research was prepared according to the descriptive analytical method, to reach the following results:

-The attention of the first Arab grammarians to compose grammatical Manthomat, which indicates their deep awareness of the educational needs of the learner.

-The presence of clear features of educational grammar in Alfiya of Ibn Maati.

Key words: Grammar, Manthomat, Alfiya, Educational grammar

مقدمة:

لقد خف الشعر على لسان العربي ، فقيد به مآثره ، وسجل على بحوره خواطره ومشاعره ولجأ إليه مصنفو العلوم والفنون ، يضبطون به القواعد ، ويقيدون به الأحكام ، فرأينا منظومات في الفرائض (المواريث) والقراءات وعلوم الحديث والأصول والبلاغة والمنطق والعروض ، وسائر العلوم والفنون والمعارف ، وقد كان للنحو في هذا الميدان النصيب الأوفى ، فكثر النظم فيه ، بين قصيدة على قافية واحدة ، إلى أرجوزة متعددة القوافي ، وبين نظم في مسألة واحدة من مسائله ، إلى نظم يستغرق كل أبوابه ومسائله .

الإشكالية: تتمحور إشكالية هذا البحث حول بيان مدى عناية النحويين الأوائل بتأليف منظومات نحوية تعليمية ، محاولين من خلالها حل إشكالية تعليم النحو، وذلك بتخليصه من كل مظاهر الصعوبة والتعقيد، مما لا يناسب المتعلمين المبتدئين، ومن هنا نتساءل: كيف كانت بداية االنظم التعليمي في النحو العربي؟ ما هو مفهوم المنظومات النحوية ؟ فيم تتمثل معالم النحو التعليمي في منظومة الدرة الألفية في علم العربية لابن معطي الزواوي الجزائري؟

فرضيات البحث: يطرح هذا البحث جملة من الفرضيات تتمثل في:

- اهتمام النحويين العرب المتقدمين بالنظم التعليمي.
- وجود ميزات خاصة في المنظومات النحوية من حيث محتواها ومنهجها والمستوى المستهدف.
- وجود معالم النحو التعليمي في ألفية ابن معطي .

أهمية البحث: تتمثل أهميته في بيان مدى عناية النحويين القدامى بتعليم النحو للمبتدئين ، وذلك من خلال تأليف منظومات نحوية ، ومنها ألفية ابن معطي ، التي تتجلى فيها سمات المنهج التعليمي واضحة.

الدراسات السابقة : من الدراسات السابقة التي تناولت بعض جوانب هذا الموضوع نذكر:

- دور المنظومات النحوية في اكتساب اللغة العربية (شرح ابن عقيل أنموذجا) للدكتورة سالمة صالح العمامي ، مداخلة في المؤتمر الدولي الافتراضي: مقررات اللغة العربية في التعليم الجامعي (ديسمبر 2020): تهدف هذه الدراسة إلى توضيح مدى فائدة المنظومة في اكتساب اللغة ، والتأكيد على أهمية تنقيح الشروحات من الأثر المنطقي المرتبط بها، وكذا تبيين العلاقة بين اكتساب اللغة وتيسير أدوات التلقي ، إضافة إلى تحديث دراسة المتون بما يتوافق مع أدوات العصر.
- المنهج التيسيري في تعليم النحو العربي ـ قراءة في الدرة الألفية لابن معطي الزواوي الجزائري ـ للدكتور محمود رزايقية ، مقال في مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والانسانية (جانفي 2019): بين فيه آثار المنهج التجديدي في تيسير تعليم النحو العربي عند ابن معطي من خلال منظومته النحوية، ودراسته تهدف إلى الكشف عن مدى انسجام وسيلة النظم مع طرق التدريس التي عرفها التربويون في العصر الحديث.

أولا / التعريف بالنحو التعليمي:

دعا الدارسون إلى ضرورة التمييز بين نوعين من النحو: النحو العلمي (النظري) ، والنحو التعليمي (التربوي) ، فالنحو العلمي التحليلي يقوم على نظرية لغوية ، تنشد الدقة في الوصف والتفسير، وتتخذ لتحقيق هذا الهدف أدق المناهج ، فهو نحو تخصصي ينبغي أن يكون عميقا مجردا ، يدرس لذاته ، وتلك طبيعته ، وهذا المستوى من النحو يعدّ نشاطا قائما برأسه، أهدافه

القريبة الخاصة به هي الاكتشاف المستمر والخلق والإبداع (حجازي، 1996، صفحة 142 ـ 145) ، أما النحو التربوي التعليمي فيمثل المستوى الوظيفي النافع لتقويم اللسان ، وسلامة الخطاب، وأداء الغرض ، وترجمة الحاجة، فهو يركز على ما يحتاجه المتعلم ، يختار المادة المناسبة من مجموع ما يقدمه النحو العلمي، مع تكييفها تكييفا محكما طبقا لأهداف التعليم وظروف العملية التعليمية (الحاج صالح، 1973، صفحة 22 ـ 23) ، فهو يقوم على أسس لغوية ونفسية وتربوية ، وليس مجرد تلخيص للنحو العلمي ، فالنحو العلمي شيء ، والنحو التعليمي شيء آخر ونمط خاص ، يتكون من مادة تربوية مختارة وفق أسس ومعايير موضوعية ، تراعي أهداف التعليم ، وحاجات المتعلمين ، وظروف العملية التعليمية ، فهو تكييف النحو والصرف مع المقاييس التي تقتضيها التربية الحديثة ، عن طريق تبسيط الصورة التي يعرض فيها على المتعلمين.

ثانيا/ المنظومات النحوية: نشأتها ودورها التعليمي

لقد " كانت لغة التأليف حتى منتصف القرن السادس الهجري تقريبا محصورة في النثر ، وذلك شيء طبيعي ، إذ إن النثر هو القادر على تحديد القواعد العلمية والتعبير عنها دون أن تقع ضحية التزام ما يفرضه النظم من ضوابط إيقاعية ، وكانت اللغة النثرية في هذه المصنفات تتسم بما تتسم به لغة العلم من وضوح ودقة ومباشرة جميعا ، ولكن قبيل منتصف القرن السادس الهجري – تقريبا– اكتشف أبو العباس الشنتمري الذي كان حيا سنة 553ه ، أن من الممكن توظيف " نظم" الشعر وإيقاعاته في صياغة منظومات نحوية تسهم في تيسير حفظ القواعد وسرعة استيعابها ، مستخدما في ذلك مقدرته الموسيقية وتمكنه من الأوزان الخليلية ، وهكذا ارتاد الطريق نحو " لغة " جديدة لتعليم النحو ، كان لها آثار بعيدة المدى فيه" (أبو المكارم، 2007، صفحة 49) ، وحسبنا أن نرجع الى كتب تاريخ النحو لنعرف إلى أي مدى كانت المنظومات النحوية من التعدد والتنوع بحيث شغلت عددا ضخما من المؤلفين ، ولبت الحاجة العملية لأجيال كثيرة من الدارسين ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن الاهتمام بالنحو المنظوم لم يقتصر على نظم القواعد ، بل تجاوز ذلك الى مختلف ضروب التأليف وصوره ، كشرح المنظومات ، والتعليق عليها ، وإعرابها ومعارضتها ، وشرح شواهد شروحها ، إلى غير ذلك من أشكال الاهتمام أدركنا إلى أي حد أسهم النحو المنظوم في إحداث تغيير كمي وكيفي معا في تعليم النحو العربي ، إذ "سرت عدوى نظم القواعد

النحوية فأصبحت فنا معترفا به يدل على القدرة ، ويشير إلى العبقرية " (مكرم، 1990، صفحة 446) .

ويعود اتجاه النحويين إلى هذا النمط من التأليف إلى كثرة المؤلفات النحوية وتنوعها وميلها إلى الإسراف في الحجم حتى غدت دراسة النحو عملا شاقا يستنفذ أعمار الكثيرين مع أن النحو – باعتراف الجميع– وسيلة لا غاية ، هذا الوضع أدى الى ظهور تطور في الدرس النحوي يسير في الاتجاه المضاد ، فقد ظهرت منذ القرن السابع الهجري موجة من المتون والمنظومات النحوية تهدف إلى تركيز النحو وجمع مادته الأساسية في مؤلفات صغيرة غاية في الإيجاز ، من أشهر تلك المتون ألفية ابن معطي ، الكافية لابن الحاجب ، والكافية الشافية والألفية والفوائد لابن مالك ، والأجرومية لابن أجروم ، وشذور الذهب لابن هشام والأزهرية لخالد الأزهري .

فقد ظهرت هذه المتون كعلاج لظاهرتي الإسراف في الطول والتنوع اللذين اتسمت بهما المؤلفات النحوية (عبد الوارث، 1985، صفحة 13).

والمنظومات النحوية هي نمط من أنماط التأليف النحوي وحلقة من حلقاته ومرحلة من مراحله أثرت فيما بعدها من مؤلفات ، فقد ظهرت ثم ازدهرت ونمت وحافظت على مكانتها مدة طويلة من الزمن ، فهي ذات قيمة علمية كبيرة ، ولها دور عظيم في تنشيط الحركة الثقافية ، إضافة إلى أنها لا تزال وسيلة من وسائل نقل العلم وتعليمه ، وهذا يدل على قوتها ومقدرتها على حمل التراث النحوي، وسبب هذا أن النحو جزء من تراث الأمة المعتمد على الحفظ مع ارتكاز النحو العربي على المعيارية القائمة على الحفظ ، فالمنظومات قد قامت في المقام الأول على الحفظ ، وهي عملية أساسية في العلم ، وطريقة لها ما يسوغها في عصر ابتداء وانتشار المنظومات وفي جميع العصور ، وتتلخص هذه المسوغات فيما يلي: (الغنيمان، 2012، صفحة 79 ـ 80)

المسوغ الأول : أهميته لقيام الحاجة إليه ، فالدين الاسلامي والثقافة العربية قامت في أساسها على الرواية التي اعتمدت على الحفظ والضبط ، ولهذا اعتمد المسلمون أسلوب الحفظ والاستظهار ، لحفظ تاريخهم وتراثهم الفكري ونقله مشافهة ، ومما يدل على أهمية الحفظ في نقل العلم قول الرسول صلى الله عليه وسلم :" نضر الله امرأ سمع منا شيئا فبلّغه كما سمع ، فرب مبلّغ أوعى من سامع "*.

* سنن الترمذي ،كتاب العلم ، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع ، رقم الحديث (2657)

المسوغ الثاني : إن كثرة الحفظ أمر مستحسن في المجتمع الاسلامي ، فلقد كان المسلمون يتباهون بمقدار حفظهم ، ومن أمثلة هؤلاء أبو هريرة رضي الله عنه ، وأبو بكر بن الأنباري وغيرهما ، إلى درجة أن الحفظ صار لقب فخر واعتزاز لهم ، فأصبحوا يلقبون بالحفاظ ، كالحافظ الذهبي والحافظ ابن كثير وغيرهم ، وقد بقي شيء من هذه العادة إلى يومنا هذا ، ولكن ينبغي أن ندرك أنهم يقصدون بالحفظ الحفظ المقترن بالفهم.

وهذه المسوغات لاتزال قائمة إلى يومنا هذا ، ولذا ينبغي أن لا ننبذ عملية الحفظ بدعوى مناهضتها لعملية الإبداع من فهم وتحليل وغيرهما ، لأن عملية الإبداع تقوم أساسا على الحفظ ، وهذا ما أكده العلماء المحدثون ، فقد ذكروا أن الدرجة الأولى من درجات المجال المعرفي هي الحفظ ، لكن ينبغي لنا الجمع بين الحفظ والاستنباط ، لأن المتعلم إذا أهمل الاستنباط لم تسرع إليه المعاني ، وإذا أهمل الحفظ لم تعلق المعاني بقلبه ، والجمع بين الحفظ والاستنباط هي الطريقة التي درج عليها معلم البشرية الأول صلى الله عليه وسلم ، فلقد كان عليه الصلاة والسلام لا يتجاوز تعليم الصحابة رضي الله عنهم عشر آيات حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل .

وهذا لا يعني أن الحفظ عند المسلمين كان غاية ، بل هو وسيلة ، وإنما الغاية عندهم هو الفهم والاستنباط ، وأيضا مما يدل على أن الغاية لدى واضعي المنظومات ودارسيها لم تكن الحفظ وحده ، بل الحفظ مع الفهم والاستعمال قول ابن الوردي عن ألفية ابن مالك :

يا عاكِفًا أَلْفِيَةَ ابن مالك وغَافِلًا عن حِفْظِها وفَهْمِها

أَما تَراها قَدْ حوت فَضائِلًا كَثِيرَةً فَلَا تَجُرْ فِي ظُلْمِها (الغنيمان، 2012، صفحة 81)

لقد أدرك العلماء الأوائل وجود فرق جوهري بين النحو وتعليم النحو ، ولهذا لجأوا إلى تيسير تعليم النحو لا تيسير النحو ، فاخترعوا المنظومات ، والمتون المنثورة المختصرة ونلاحظ مدى عناية علماء العربية بالمنظومات ، والتي اتسمت بالشمول والاختصار ، وبخلوها من الحشو كالتعريفات وبعض الأبواب التي لا تهم المتعلم مع شمولها لمعظم أبواب النحو ومسائله ، وهذا يختصر على المتعلم الوقت ويزيد في استيعابه ، وبخاصة أن القواعد النحوية متسمة بالطابع التعليمي النابع من نهج النحو المعياري الذي يتسم بالتسلسل المنطقي ولا يدع ذهن المتعلم يتشتت بكثرة الأحكام التي يتعلمها .

فقد رأى النحاة أن النظم التعليمي هو أسهل الطرق وأقصرها لتيسير النحو وتسهيله ، وقد ساعد اختصار هذه المتون واقتصارها على الأسس العامة على حفظها وتقريب الحقائق النحوية إلى ذهن المتلقي ، وقيمة المنظومات تكمن في قيمتها العلمية المتمثلة في تنويعها حركة التأليف وإثرائها للمكتبة العربية ، وتنشيطها للحركة العلمية ، ولا ينبغي أن ننظر إلى الشعر التعليمي على أنه فقط وسيلة لنقل العلم مثله مثل الكتابة وأدواتها ، كما هو واضح من رأي من سلب منه القيمة الأدبية ، بل الصحيح أن ينظر إليه على أنه نوع من أنواع النشاط العلمي ، " وليس من شك في أن المنظومة النحوية عمل تربوي بكل المقاييس لأنها هدفت إلى توصيل النحو العربي بقواعده وشواهده وأمثلته إلى الدارسين بأيسر سبيل محبب إلى نفسه وهو أسلوب الشعر وإن كلف ذلك الناظم عناء شديدا وتطلب منه دراسة واسعة بعلوم العربية " (ممدوح، 2000، صفحة 284) ، فهي طريقة جديدة في عرض النحو ، اختصرت قواعده وشواهده وأمثلته وعممت ضروراته الشعرية واللهجات المختلفة في الاستعمال ، كما أن لها " أبعاد تعليمية معيارية ذات اتجاه يعد مزيجا للاتجاهات النحوية التي ظهرت في البيئات العلمية العربية " (ممدوح، 2000، صفحة 265). فالمنظومات النحوية تعد وسيلة من وسائل التيسير التي مر بها النحو العربي في تاريخه وإن صبغت النحو بصبغة معيارية ، ومن تلك المنظومات " الدرة الألفية في علم العربية " ، التي تمثل طريقة تربوية تشبه الأساليب التربوية الحديثة .

ثالثا / التعريف بالناظم (ابن معطي) والمنظومة (الدرة الألفية في علم العربية):

قائل هذه المنظومة هو زين الدين أبو زكريا يحي بن عبد المعطي بن عبد النور ، الزواوي نسبة إلى زواوة، قبيلة كبيرة في شرق الجزائر بظاهر بجاية ولد سنة 564هـ ، اشتغل بالعربية على شيخه أبي موسى الجزولي ، فنبغ فيها ثم رحل إلى بلاد المشرق فالتقى المشايخ وباحث العلماء وناظر الفضلاء، توفي بمصر سنة 628هـ بعد حياة حافلة بالعلم مملوءة بالنشاط والتأليف (ابن معطي، 2010، صفحة 9 ـ 11) ، فكان أشهر ما ألف في النحو " الدرة الألفية في علم العربية" ، وهي منظومة نحوية صغيرة في حجمها ،كبيرة في قيمتها العلمية ، فقد ضمنها ابن معطي جميع أبواب النحو والصرف ، انتهى منها عام 595 هـ بدمشق كما يقول حاجي خليفة أو بالقاهرة كما يقول آخرون ، وتعد أول منظومة نحوية في ألف بيت ، إذ جاءت في (1021) بيتا ، ولو أخرجنا من هذا العدد المقدمة والخاتمة كان خالص ما فيها من القواعد (1002) ألف بيت واثنين ، وقد طبعت الألفية طبعة وحيدة في ليبزج سنة 1317هـ الموافقة لسنة 1900 م بعناية المستشرق زيتسترن

، ووقعت في 69 صفحة من القطع المتوسط ، مع مقدمة باللغة الألمانية ، ومقتطفات من شرح ابن الخباز ، وقد ذكر هذا المستشرق أنه نشر الألفية من مخطوطات برلين والأسكوريال وليدن (ابن معطي، 2010، صفحة 13).

ويعد ابن معطي الرائد في استعمال لفظ الألفية في أشعاره ، فقد أطلق هذه التسمية على منظومته حيث قال في ختامها :

تحويه أشعارهم المروية هذا تمام الدرة الألفية (ابن معطي، 2010، صفحة 73)

ثم عرف هذا النظم بعده بالألفية ، لقول ابن مالك في مقدمة ألفيته :

وتقتضي رضا بغير سخط فائقة ألفية ابن معطي (ابن مالك، دت ط، صفحة 2)

ولا يعلم نظم قبل نظم ابن معطي حمل هذه التسمية ، سواء في النحو أو غيره ، ومهما يكن من شيء فقد شاعت هذه التسمية بعد ابن معطي ، في نظم النحو وغيره (ابن معطي، 1977، صفحة 36).

ولقد اشتهرت ألفيته ، وكان لشهرتها دوي وسط البيئات العلمية في القاهرة وغيرها ، لأنها أول منظومة نحوية في ألف بيت ، فهو صاحب الفضل في هذا الشأن لأنه فتح الباب لمن أتى بعده كابن مالك والسيوطي ، وقد عرف ابن مالك قدر هذا الرجل فذكر في ألفيته ما يشير إلى هذا بقوله :

وهو بسبق حاز تفضيلا مستوجب ثنائي الجميلا (ابن مالك، دت ط، صفحة 2)

فالإمام ابن مالك نفسه كان يقريء ألفية ابن معطي ، وقد نسج على منواله في ألفيته ، وعلى الرغم من ظهور ألفية ابن مالك فيما بعد وشهرتها وكثرة الشراح عليها مما جعلها مدرسة قائمة بذاتها ، على الرغم من هذا كله فإنها لم تشغل العلماء عن ألفية ابن معط ، وقد اهتم عدد من العلماء بدراسة الدرة الألفية في علم العربية وشرحها (ابن معطي، 2010، صفحة 13) ، وبهذه الشروح أسهمت الألفية في الحركة النحوية منذ القرنين السابع والثامن من الهجرة ، وهو وإن لم تصل ألفيته إلى الدرجة التي وصلت إليها ألفية ابن مالك من حيث الضبط والتنظيم والدقة والترتيب فيكفيه فخرا أنه عبد الطريق لغيره ، ووضع اللبنة الأولى في البناء لكل ألفية ظهرت من بعده .

فقد حظيت ألفية ابن معطي بالشهرة ، وتلقاها الناس بالقبول ، فقرأوها وأقرأوها ، ونظموا في مدحها ، وحكي ابن تغري بردي في ترجمة أبي جعفر شهاب الدين أحمد بن يوسف بن مالك الرُّعيني الغرناطي وهو أحد شراح الألفية ، قال : ومن شعره ما كتبه على ألفية الشيخ يحي:

يا طَالِب النَّحوِ ذَا اجتِهاد تَسمو بِهِ فِي الورى وتَحيَا
إِنْ شِئتَ نَيلَ المُرَادِ فَاقْصِدْ أُرجوزَةَ الإِمَام يَحيَ

لقد نظم ابن معطي ألفيته على بحرين هما : بحر الرجز وبحر السريع ، وهذا مما تتميز به الدرة الألفية رغم أن عادة ناظمي القصائد العلمية أن يصوغوا قواعدهم على قصيدة من بحر واحد وقافية واحدة أو أرجوزة مختلفة القوافي من بحر الرجز ، وهذا الشكل الأخير هو الغالب على المنظومات العلمية ، لكن ابن معطي حين صنف ألفيته اختار شكلا لم يسبق إليه ، وهو أنه نظم من بحري الرجز والسريع قال :

وذَا حدَا إِخوانُ صِدْقٍ لِي علَى أَنْ اقْتَضوا مِنِي لَهم أَنْ أَجعلَا
أُرجوزَةً وجِيزَةً فِي النَّحوِ عِدَّتُها أَلْفٌ خلَت مِن حشْوِ
لعِلْمِهِم بِأَنَّ حِفْظَ النَّظْمِ وفْقَ الذَّكِي والبَعِيد الفَهمِ
لاسِيَّمَا مَشْطُور بَحرِ الرَّجزِ إِذَا بَنِي علَى ازدِواجٍ موجزِ
أَو ما يضَاهِيه مِن السَّرِيعِ مَزدوجِ الشُّطُورِ كالتَّصرِيعِ (ابن معطي، 2010، صفحة 17)

على أن اختيار ابن معطي لهذين البحرين مما يدل على حسه الموسيقي المرهف ، فالبحران متقاربان في وزنهما ، وقد يقع الخلط بينهما أحيانا (ابن معطي، 1977، صفحة 34) ، وهذا أبرز فرق بين ألفية ابن معطي وألفية ابن مالك ، فهذا نظم ألفيته كلها على بحر الرجز.

رابعا / المنهج التعليمي في منظومة ابن معطي:

إن الهدف من أغلب المنظومات النحوية هو تيسير النحو وجعله قريبا من أذهان متعلميه ولهذا اختلفت من جهة الطول والقصر تبعا لاختلاف من كان مقصودا بنظمها ، فبعض المنظومات قصد بها المبتدئون ، لأن الهدف منها تعليم النحو ، فنرى أنها مختصرة وغير طويلة ، ونرى المعيارية واضحة فيها ، وبعضها قصد به من هو أعلى من المبتدئين ، فنراها طويلة ونرى فيها كثرة التفريعات والتقسيمات، ومن هنا رأينا الناظمين الذين ألفوا منظومات للمبتدئين حريصين على اتباع مناهج التعليم في منظوماتهم وقد ظهرت سمات هذه المناهج بارزة في ألفية

ابن معطي بصفة خاصة ، وإن كانت مناهج التعليم موجودة فيها كلها ولكن بنسب متفاوتة ، وهذه السمات تتمثل فيما يلي :

- قدمت ألفية ابن معطي نحوا معياريا ، فنبهت على الأخطاء في الأداء اللغوي ، أي لغة المتعلم التي ينتجها وهو يتعلم ، وهذا من أجل معرفة طريقة مواجهتها وكيفية تلافيها ، إذ يقول في الكلام عن الأسماء المعربة:

أَخ أَب حم هن وفَوه ذُو المال قَل وَلَا يَجوز ذُوه (ابن معطي، 2010، صفحة 20)

- اهتمت هذه المنظومة بدراسة اللهجات العربية القديمة ، وركزت على دراسة اللهجة الفصيحة العامة ، وهي اللهجة الواسعة الانتشار ، ومن أمثلة هذا قوله :

والمضمر المجرور إنْ عطَفْتا عَلَيه جيء بِمَا به جررتَا

نَحو : مضى به وبالغلَام وشدَّ منه بـك وَالأَيَّام (ابن معطي، 2010، صفحة 46)

- راعى الناظم النفع العملي لمحتوى المنظومة ، وهذا ظاهر عند الذين أرادوا أن تكون منظوماتهم تعليمية حيث تجنب الحديث عما في وصف اللغة من أبواب لا تصلح للتعليم ، مثل باب التنازع ،كما تجنب التعليل للأحكام ، وهذا اتجاه منه إلى إنشاء نحو آخر يعرف بالنحو التعليمي ، وهو يختلف جوهريا عن النحو العلمي ، فلا نجده يتناول جميع التراكيب المقبولة نحويا ، بل يقتصر على التراكيب النحوية الملائمة للموقف الكلامي . أي أنه يختار البنى النحوية الشائعة ، ولهذا راعى في منظومته أن يكون النحو فيها انتقائيا وفق الحاجات اللغوية ومقامات الاستعمال.

- ظهر في ألفية ابن معطي بعض جوانب من علم التربية ، فنجد أن الناظم اتبع بعض طرق التدريس التي نادى بها التربويون في العصر الحديث ، فقد سعى الناظم إلى تعليم النحو باستخدام وسيلة النظم ، وراعى في منظومته أن تتوافق مع طريقة التفكير الانساني القائمة على التدريج من الكليات إلى الجزئيات أو العكس ، لأن طريقة التعليم يجب أن تكون منسجمة مع طريقة التفكير ، ومن هنا استخدم الناظم في منظومته بعض طرق التدريس التي عرفت حديثا ، والتي تتفق مع طريقة التفكير ، ومنها الطريقة القياسية ، وهي انتقال الفكر من الحقائق العامة إلى الحقيقة الجزئية ، أو من الكل إلى الجزء ، وهذه الطريقة تستند إلى منطق أرسطو لأنها تبدأ بطرح القضايا والنظريات والمباديء والقواعد الأساسية العامة ، ثم تعرض هذه المباديء والقواعد وتحلل وتجمع الجزئيات والمعلومات والشواهد والأمثلة ، ثم تعود

إلى حيث بدأت بالأفكار العامة والقواعد والنظريات ، فهي تبدأ بالكل العام ثم تتطرق إلى الأجزاء ثم تعود مرة أخرى إلى الكلي العام الذي تنطوي تحته هذه الأجزاء (الدليمي والوائلي، 2005، صفحة 91 92)، وتمتاز هذه الطريقة بسهولة السير فيها على وفق خطواتها المقررة ، فالطالب الذي يفهم القاعدة فهما جيدا يمكن أن يستقيم لسانه أكثر بكثير من الذي يستنبط القاعدة من أمثلة توضح له قبل ذكرها ، وهي طريقة سريعة لأنها لا تستغرق وقتا طويلا ، وأنها تساعد الطلبة على تنمية عادات التفكير الجيد ، فالتفكير يحتاج إلى المادة وإلى الحقائق التي يجب أن يعرفها الطالب بدقة إذا أراد أن يطبقها في حل المشكلات وتفسير الفرضيات ، وإن سبيلها الوحيد هو الحفظ ، فحفظ القاعدة هو الذي يعين على تذكرها ، وأنها تصلح بعد ذلك للتدريس في المرحلة الثانوية (الدليمي والوائلي، 2005، صفحة 182) ، ويمثل هذه الطريقة الأبيات المقتصرة على قاعدة فقط أو المشتملة على قاعدة ومثال لها ، ومن أمثلة ذلك قول الناظم في الكلام عن الحال :

والحالُ هيئةَ شبيه الوصفِ كجاء زيدٌ خائفًا يستخفي (ابن معطي، 2010، صفحة 31)

وهذه الطريقة هي الشائعة في أكثر المنظومات ومنها ألفية ابن مالك ، لأن كتب النحو التعليمي تتسم غالبا بتقديم القاعدة العامة ثم تتبعها بالأمثلة التي توضحها .

- تقتضي طبيعة الاهتمام بالمنظومة أن تكون محفوظة ، وقد ساعد تأليفها للتعليم على جعل احتمال نسيان محتواها قليلا ، لكثرة تكرارها للحفظ أو التدريس ، يضاف إلى هذا أن الناظم حرص على أن تكون منظومته حاضرة في ذهن من يتعلمها ، وذلك باعتماده على الإحالة إلى قواعد وأحكام سابقة، ومن ذلك قوله في الكلام عن كاد وأخواتها :

وأَلحقوا بِكَانَ كَادْ وعسى دليلُه عسى الغوير أَبؤسا (ابن معطي، 2010، صفحة 46)

حيث ذكر بأن (كاد) لها نفس عمل (كان) من رفع الاسم ونصب الخبر

وقوله في الكلام عن لا النافية للجنس :

ويَجعلُونَ لَا كَإِنَّ فِي العمل تَقولُ : لَا ذَا نَجدةً غَير بطَل (ابن معطي، 2010، صفحة 48)

ولهذا فإن مآخذ التربويين على التدريج الطولي لمحتوى المادة العلمية الموجود في الكتب النحوية لا يسلم له ، لأنهم ذكروا أن فيه سلبيات أهمها نسيان المادة العلمية ، ونحن عرفنا أن النسيان سيزول مع الحفظ والتكرار والتذكير بالقواعد السابقة.

- سعى الناظم إلى تيسير تعليم النحو بوضعه منظومته ، ثم سعى إلى تيسير المنظومة بجعلها قريبة وحاضرة في ذهن متعلمها ، وذلك بصياغتها بأسلوب سهل ، جلي العبارة ، واضح الأفكار ، مترابط المواضيع ، وهذا ظاهر لدى من صنف منظومته للمبتدئين ، وخير دليل على هذا أنه لم يستعمل في أمثلته المثال المشهور عند النحويين وهو (ضرب زيد عمرا) بل استعاض عنه بأمثلة ذات معان جميلة ، كقوله في باب التعدي واللزوم :

الخامس النَّاصِب مفْعولَيْن نَحْو: كَسوت العبدَ حلَّتَيْن (ابن معطي، 2010، صفحة 30)

فأول ما يلفت نظر قارئ ألفية ابن معطي العذوبة والسلاسة والإحكام في صياغة القواعد النحوية ، فالناظم اشتغل بالأدب درسا وتصنيفا ، وجل مصنفاته تدور في فلكه ، وقد انعكس ذلك في معالجته لقواعد النحو نظما ، ويبدو ذلك جليا من خلال مقارنة ألفية ابن معطي بألفية ابن مالك من حيث صياغة القواعد النحوية ، إذ نلمس بوضوح عذوبة نظم ابن معطي ولتقرأ أول باب في الألفيتين ، يقول ابن معطي :

اللَّفْظُ إنْ يفِدْ هو الكَلَامْ نَحْو مضى القَوم وهم كِرامْ (ابن معطي، 2010، صفحة 17)

ويقول ابن مالك :

كَلَامُنَا لَفْظٌ مفِيدٌ كَاستَقِم واسم وفِعل ثُمَّ حرفٌ الْكَلِم (ابن مالك، دت ط، صفحة 2)

وقد أنصف المقري ابن معطي وشهد له بهذه العذوبة التي يحسها كل من طالع " ألفيته " ، قال المقري في ترجمة ابن مالك :" واعلم أن الألفية مختصرة الكافية ، كما تقدم ، وكثير من أبياتها فيها بلفظها ، ومتبوعه فيها ابن معطي ، ونظمه أجمع وأوعب ، ونظم ابن معطي أسلس وأعذب ".

فجمال أسلوب المنظومة ووضوح عبارتها عامل مهم في تشجيع الإقبال عليها ودراستها وحفظها ، وهذا له دور كبير في تعليم النحو ونشره ، مما يجعلها وسيلة ناجحة تلبي حاجات المتعلمين في كل وقت.

- امتازت المنظومة إضافة إلى اهتمامها بتيسير النحو وتعليمه بالجوانب التربوية التي أصلها المسلمون فنجد في بعضها توجيهات خلقية منبثقة من التوجيه الديني ، أو نصائح نابعة من خبرة الناظم في الحياة ، ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن معطي في ألفيته:

وما أُعِيب فِعلُه فَاعذُلْه وَلَا تَعِب فِعل امرِيءٍ وتَفْعلْه (ابن معطي، 2010، صفحة 23)

وقوله :

فَالمدْح نِعم العبدَ عبدَ اللَّه والذَّمُّ بِئس العبدَ عبدَ لَاْهي (ابن معطي، 2010، صفحة 49)

فعندما يحفظ طلاب العلم وبخاصة الناشئة المنظومة ويرددون توجيهاتها فسيتذكرونها دائما ، مما يجعل للمنظومة أثرا كبيرا في اتباعهم ما فيها وامتثالهم السلوك الحسن .

- امتازت ألفية ابن معطي أيضا بظاهرة شاعت شيوعا بينا ، وهي تضمينه للشواهد النحوية وإدماجها في النظم ، من ذلك قوله في الكلام عن "رب" :

وربَّ إنْ كُفَّت بِمَا كربَّمَا صارت كَمِثْلِ إنَّمَا وعلَّما

فَيقَع الفعل والاَسم بعدها وأَضمروا في الشعر ربَّ وحدها

وحيثما لَها دليل باْقتي كَقوله : وقَاتِم الأَعماق (ابن معطي، 2010، صفحة 25)

والشاهد الأخير لرؤبة ، وهو بتمامه : وقاتم الأعماق خاوي المخترق ، وقوله في الكلام عن إعمال " ما " عمل " ليس " :

يشْهدَ لِلْحِجاز في لُغاتِهم مقَالُه : ما هنَّ أُمَّهاتِهم

ومن عدا أَهل الحِجاز رفعوا خبر " ماْ " إلَّا الذين سَمِعوا

النَّصب في القرآن فيما ذكرا ومِنه في يوسف : هذَاْ بشراْ (ابن معطي، 2010، صفحة 46)

والآية الأولى : هي الثانية من سورة المجادلة ، والثانية : هي الواحدة والثلاثون من سورة يوسف.

ويطول بنا الحديث لو استقصينا هذه الظاهرة في كل أبواب الألفية ، على أن هذه الظاهرة لم تأت في ألفية ابن مالك إلا في مواضع قليلة جدا.

- ظهرت براعة ابن معطي وتجلى اقتداره على النظم في تلك العنوانات التي صدر بها الأبواب فقد صاغ رؤوس الأبواب نظما ، ففي أول باب يقول :

بالله ربي في الأُمور أَعتصِم القولُ في حدّ الكَلَاْم والْكَلِم (ابن معطي، 2010، صفحة 17)

وفي صدر المعرب والمبني يقول :

القولُ في الإعراْب والبناء الأَصل في الإعراْب لِلْأَسْماء (ابن معطي، 2010، صفحة 19)

وفي باب المبني للمفعول يجعل عنوانه :

القولُ فِيما لَم يسمَّ فَاْعِلُه قَدْ يُحذَفُ الفَاعِل لَفْظًا جاْهِلُه (ابن معطي، 2010، صفحة 34)

وهكذا تجري عنوانات الأبواب كلها منظومة على هذا النسق.

- تتجلى أيضا قدرة ابن معطي على توضيح الموضوع الذي يتحدث عنه بأقصر الطرق وأسهل تعبير حتى يسهل حفظها ، فقد حصر مثلا أوزان الخماسي في بيت واحد ، ومثّل بكلمات دون الأوزان ، وذلك لسهولة حفظ الكلمات ، أما الأوزان فحروفها واحدة والفرق بينها بالشكل مما يؤدي إلى صعوبة الحفظ فقال :

وبِلْخماسِي جاءْ قِرطَعب ولَه سفَرجل جحمرِش قَذَعمِلَه (ابن معطي، 2010، صفحة 58)

وعندما أ راد ابن معطي الحديث عن النكرة وضح خصائصها ومميزاتها بالأمثلة فقال :

اكُلُّ ماْ يقْبـــل ربَّ أَو أَلْ أَو كَم مضاف إِلَيه تَدْخل

أَو من لِلاْسيغْراق أَو كـلاًّ لَه فإِنَّه منـكر مِثْله

ربَّ غُلاَمٍ قَدْ ملَكْت أَو كَم اكُلُّ عبدٍ مالُه من درهم (ابن معطي، 2010، صفحة 35)

- أما التمثيل فقد عني به ابن معطي كثيرا – وهو من لوازم التأليف التعليمي – إذ تكثر الأمثلة التوضيحية في منظومته ، وهذه الأمثلة مصنوعة لتعبر عن الشكل اللغوي الذي يصور متطلبات القاعدة النحوية ، حيث أن تنوع الأمثلة وكثرتها يتيح فرصة للمتعلم لتذوق التركيب ويساعد على تكوين الحس اللغوي السليم ، " ولما كان استئناس العقول القاصرة بالأمثلة أكثر لكون الجزئي أول المدركات شاع في مخاطبات المتعلمين التعريف به" (الجرجاني، صفحة 482) ، كما أن المثال النحوي بوابة عبور إلى القاعدة النحوية ، " ذلك أن تعليم النحو للمبتدئين مرتبط بالضرورة بنصوص لغوية تحمل الظواهر المراد استخلاص قواعدها وتصور خصائصها ، إذ المبتديء لا يستطيع أن يلمس الظواهر مجردة من نصوصها ، ولا أن يستوعب القواعد بعيدا عن نماذجها، فالنص بالنسبة له وسيلة لا غنى عنها للإدراك والفهم والاستيعاب جميعا" (أبو المكارم، 2007، صفحة 120)، لأن علم النحو من أحوج العلوم العقلية إلى التمثيل عليها ، ومن أمثلة ذلك قوله في التحذير :

ويِنصب المْفعولَ فِعل مضْمر تَقَولُ : إِيَّاْكَ وشَيئاً ينْكَر

ومِثْله : مكَةَ والمِلاْلَ لَمَّا رأَى الأُهْبةَ والإِهْلاَلَ

شَأْنَكَ والحجَّ أَي الْزم شَأْنَكَا أَهْلَكَ واللَّيل أَي الْحق أَهْلَكَا

(ابن معطي، 2010، صفحة 28 ـ 29)

وقوله في الكلام عن الاختصاص :

كَمِثْلِ : نَحْن الْعرب أَقْرى لِلْنُّزلْ وإِنَّنِي أَفْعل أَيُّـها الرَّجل (ابن معطي، 2010، صفحة 55)

وابن خلدون يعيب الكتب النحوية التي تخلو من الشواهد والأمثلة إذ يعتبرها وكأنها قوانين عقلية لا تحقق الغاية وهي ترسيخ الملكة اللغوية ، وهو يشيد بكتب النحو التي تتضمن الشواهد من القرآن الكريم والشعر العربي وكلام العرب لأن هذه الشواهد تعين الدارسين على تكوين ملكة اللسان العربي (ابن خلدون، 2005، صفحة 490).

خاتمة:

خلاصة القول إن المنظومات النحوية عموما بما اجتمع فيها من أساليب ووسائل ناجحة لنقل العلم وتقديمه لطلابه ، قامت في العصور السابقة بدور كبير في المجال العلمي والتعليمي ولا يزال دورها إلى الآن باقيا في الزوايا والمدارس القرآنية وإن كان أقل مما سبق ، فبقاء دورها واستمراره زمنا طويلا دليل على قوتها وثباتها ، ولهذا يجدر بنا أن نحافظ على هذه الوسيلة ونسعى الى تطويرها ، كأن نجعل المنظومة نشيدا نوصل به المعلومات إلى الطفل بأسلوب مناسب لعمره ، وشيق ومحبب إلى نفسه ، وهذا ليس صعبا فلقد عمل بشيء منه في رياض للأطفال في بعض البلاد العربية ولاقى نجاحا كبيرا ، كما يمكننا الاستفادة من الوسائل الحديثة وذلك بأن تسجل هذه الأناشيد على أشرطة مسموعة أو مرئية فيستفاد منها على نطاق واسع .

وبالإمكان أيضا تسخير الحاسب الآلي للاستفادة من المنظومات ، فكثير منها غني بالمادة العلمية واللفظية ، فنغذي الحاسب الآلي بالمنظومات فيعطينا ما نريد كلما طلبنا منه ذلك ، كأن يقوم بتقويم العبارات وتصحيح ضبط الكلمات مستعينا بالمنظومات ، وقد طبق مثل هذا في علم الفرائض ، فبإمكان الحاسب الآلي الآن عن طريق برنامج الفرائض قسمة التركة بكل يسر وسهولة وبسرعة متناهية ولا يحتاج لشيء إلا لإدخال المسألة الفرضية فحسب .

قائمة المراجع:

الكتب:

1. ابن خلدون ، المقدمة ، تحقيق : عبد السلام الشدادي ، بيت الفنون والعلوم والآداب ، الدار البيضاء ، المغرب، ط1 ، 2005، الجزء الثالث
2. ابن مالك ، متن الألفية ، المكتبة الشعبية ، بيروت ، لبنان، دط ، دت ط
3. الشريف الجرجاني، التعريفات ، تحقيق: محمد صديق المنشاوي ، دار الفضيلة ، القاهرة ، مصر، دط ، دت ط
4. حسان بن عبد الله الغنيمان، المنظومات النحوية وأثرها في تعليم النحو ، جامعة الملك سعود ، السعودية ، 2012
5. طه علي حسين الدليمي وسعاد عبد الكريم عباس الوائلي، اللغة العربية مناهجها وطرائق تدريسها ، دار الشروق ، عمان ، الأردن ، ط1، 2005
6. عبد الرحمن ممدوح ، المنظومة النحوية (دراسة تحليلية) ، دار المعرفة الجامعية ، القاهرة ، مصر، دط، 2000
7. عبد العال سالم مكرم ، المدرسة النحوية في مصر والشام ، مؤسسة الرسالة، القاهرة ، مصر، ط2 ، 1990
8. عبد الوارث مبروك سعيد، في إصلاح النحو العربي (دراسة نقدية) ، دار القلم ، الكويت ، ط1 ، 1985
9. علي أبو المكارم، تعليم النحو العربي ، مؤسسة المختار، القاهرة ، مصر، ط1، 2007
10. محمود فهمي حجازي، البحث اللغوي، دار غريب ، القاهرة ، مصر ، دط، 1996
11. يحي بن عبد المعطي، الدرة الألفية في علم العربية في النحو والصرف والخط والكتابة ، ضبطها وقدم لها : سليمان ابراهيم البلكيمي ، دار الفضيلة ، القاهرة ، مصر، ط1 ، 2010
12. يحي بن عبد المعطي، الفصول الخمسون، تحقيق : محمود محمد الطناحي ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، مصر، 1977

المقالات:

13. عبد الرحمن الحاج صالح ، أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية ، مجلة اللسانيات، مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية ، الجزائر، المجلد 4، العدد 1، 1973